على هامش (دراسات عن المقدمة) :

تحامل ابن خلدون على العرب

للأستاذ محمد سليم الرشدان

— ٢ —

(في الفصل السابق من هذا البحث برهنت على أن دفاع الأستاذ الحصري بك عن ابن خلدون في تحامله على العرب (بكتابه دراسات عن المقدمة) لم تكن تؤيده أقوال ابن خلدون نفسه ، واستشهدت بنصوص (المقدمة) التي اعتمد عليها ، مثبتاً أن الاستمرار بتلاوة تلك النصوص ينطق بعكس ما يريده الحصري ، ويقوم حجة على أن ابن خلدون تعمد ذلك التحامل ، وأراد به العرب في أمصارهم وبواديهم ... وها هنا أكمل التعليق على هامش تلك (الدراسات) ، مبيناً وجوه الرأي في ذلك التحامل وأسبابه المحتملة . فأقول :)

لعل سائلا يسأل ، ما سبب تحامل ابن خلدون على العرب بهذه الصورة التي لفتت أنظار الباحثين ، حتى من غير العرب ؟! لجعلت البعض يظنون في حقيقة نسبه شتى الظنون ، وجعلت البعض الآخر يتهمونه في قوميته . كما جعلت هذين الكاتبين ، وأعني بهما (بارون دوسلان الفرنسي) و (جودت باشا التركي) يلتمسان له وجه العذر بهذا التأويل الذي أولاه كلة (العرب) عنده كما مر آنفاً .

فهل كان حقيقة دعياً في (نسبه) ، فهو يحمل في نفسه موجدة على العرب الذين هدموا مجد أسلافه — فيما إذا كانوا من غير العرب ! — وسلبوا حريتهم . فهو من أجل ذلك موتور ، وصاحب الترة كثيراً ما يجنح به الخطل ، ويميل مع الهوى كل الميل دون روية أو تبصر .

أم كان حقيقة متهماً في (قوميته) ، فهو من أجل هذا الالتواء والشذوذ ، يتحامل على العرب شر تحامل ، ويرميهم بهذه العيوب التي أحاطهم بها ، وينسب إليهم أسوأ الصفات ، وأية صفات أسوأ من هذا الذي وصف به العرب وبالغ في وصمه ؟!

هذا ما تقتضي الإجابة عليه ، وأنا لموقف. دمر شائك ، لا يخلو صاحبه من أن يتحكم به هواه ، أو يضل طريق الصواب في اجتهاده . على أنني ساحاول — جهد الطاقة — أن أتقي ذلك « بالشمال واليمين » وأن أقف عند حد الاعتدال فيما أعرض له . فأقـــول :

إن اتهام ابن خلدون في وجه من الوجوه التي ذكرت ، والتي يمكن أن تفترض كذلك ، ليس بالأمر البسيط الهين . وإن ابن خلدون لو لم يكن له من الفضل إلا أنه المبتكر الفذ الذي سبق الأولين والآخرين من سلفه ، في استنباط فلسفة علم التاريخ وفلسفة علم الاجتماع لكفاه ذلك فخراً . وحسب هذا الذي تراوده نفسه أن يتهم ابن خلدون في أية ناحية (فكرية أو نفسية) ، أن يضع بين يديه شيئاً من أقوال عظماء الأجيال فيه ، في شتى العصور ومختلف الأمم . وحينذاك — بعد أن يعرف ابن خلدون حق المعرفة — يستطيع أن يتحدث عنه بالكيفية التي يطمئن إليها . وأن تلك الأقوال التي أثرت من كبار الباحثين في (ابن خلدون) لوافرة جمة يضيق عنها الحصر . على أنني برغم ذلك استشهد بشيء منها تأييداً لما ذكرته من ذلك المؤرخ العالم الفيلسوف .

يقول (البارون فون كرايمر) العربي النمسوي ، في رسالته (ابن خلدون وتاريخه لحضارة الدول الإسلامية) أن ابن خلدون يؤرخ الحضارة الإسلامية وهو : « من بين المؤرخين المسلمين أول من خصص فصولاً ضافية للتحدث عن النظم السياسية وأنواع الحكم[1] ... » .

ويقول الأستاذ (فيت) الإنجليزي ، وهو أحدث من درس ابن خلدون وتقدمه ما يأتي : « إذا وجب — مع بعض التحفظ — أن نعتبر ابن خلدون مؤرخاً للحضارة الإسلامية ، فيحسن أن نتدبر ما إذا لم يكن قصد ابن خلدون الحقيق ، هو أن يقدم لنا أمثلة إيضاحية ، ومجموعة تبين لنا ما يعتبره موضوع التاريخ وجوهره ... ولقد كانت هذه الفكرة العظيمة المستنيرة في فهم التاريخ بأنه سجل لتطور الإنسان الاجتماعي مترتباً على العوامل الطبيعية ، وناشئاً من تأثير الوسط وتفاعل الفرد والجماعة ، خليقة بأن تجعل كتابه مفتتح عهد جديد[2] ... » .

(١ و ٢) ابن خلدون حياته وتراثه لعنان . طبعة أولى القاهرة ج ٢ ص ١٤٧ و ١٤٨ و ١٤٩ ثم ج ١ ص ١٣ س ١ .

ويعتبر الأستاذ الهولندى (دى بور) ابن خلدون فيلسوفاً «ويضعه فى ثبت الفلاسفة المسلمين إلى جانب ابن سينا والغزالى وابن رشد وابن الطفيل، وينوه بقيمة المنطق فى صوغ نظرياته. ويصفه بأنه مفكر متزن[1] ... ».

ويعده آخرون كثيرون فى مكانة لا تقل عن هذه المكانة التى وضعه فيها هؤلاء الباحثون. ويصرحون بذلك على مرأى ومسمع من أساطين العلم والفكر، دون أن يجدوا من يعارض قولهم، أو ينتقص قيمته من حيث الحقيقة، أو يتهمهم بالمبالغة فى سرد هذه الحقيقة.

ونحن حين نعرف ابن خلدون عن هذا الطريق، نقف حيال آثاره موقفاً لا يزايلنا معه إجلاله وإكباره، وتقدير اللائق بمكانته العلمية الرفيعة — على أنه من الجدير بنا فى هذا المقام إلا نمتهن رأينا وتفكيرنا، فيصور لنا احترامنا لابن خلدون سقطاته التى وقع فيها حسنات كلها. وهيهات! فالحق أبلج والباطل لجج، وأن الحقيقة التى لا نرتاب فى صحتها هى أن ابن خلدون قسا فى حكمه على العرب قسوة بالغة، وحكم عليهم حكماً كان من القمين به وبمكانته العلمية أن يتبصر كثيراً فى إصداره والمجاهرة به.

وأما أنه أصدر هذا الحكم لأنه كان دعى النسب فى العرب، فذلك أمر يحتاج البت فيه والجزم فى صحته إلى كثير من التدقيق. ولا أدرى هل كان ابن خلدون دعياً فى نسبه حقاً ؟! وأنى لنا معرفة ذلك معرفة لا تخالطها ريبة، ولا يمازجها شك !!

يقول الرجل (أعنى ابن خلدون) من نفسه أن يرجع فى أصله إلى العرب اليمانية فى حضر موت، «ونسبه إلى وائل بن حجر، ويعتمد فى ذلك على رواية النسابة الأندلسى ابن حزم (توفى سنة ٤٥٧هـ) غير أنه يشك فى صحة هذه السلسلة، ويعتقد أن أسماء منها قد سقطت. لأنه إذا كان خلدون هو جده الداخل إلى الأندلس عند الفتح، فإن عشرة أجداد لا تكفى لقطع ستة قرون ونصف التى انقضت منذ الفتح حتى مولده. وفى رأيه أنه يجب لقطعها عشرون، باعتبار ثلاثة أجداد لكل قرن. وأما نسب جده خلدون الداخل إلى الأندلس، فهو كما روى

(١) المصدر السابق.

ابن حزم أيضاً: خالد، المعروف بخلدون بن عثمان بن هانئ بن الخطاب بن كريب بن معد يكرب بن الحارث بن وائل بن حجر. فابن خلدون — طبقاً لهذه النسبة — سليل أصل من أعرق الأصول العربية اليمانية[1] ... ».

هذا ما يقوله ابن خلدون من نفسه مستقى من تلخيص الأستاذ عبد الله عنان المحامى الذى يقول فى تعليقه على هذا النسب ما يلى: «ولكن هنالك ما يحمل على الشك فى صحة هذا النسب البعيد، الذى يدونه ابن حزم لأول مرة فى القرن الخامس الهجرى. ويقوى هذا الشك لدينا ما نعرفه من ظروف الخصومة والتنافس بين العرب والبربر فى الأندلس — وكانت العروبة فى الأندلس شرفاً يرغب فى الانتساب إليه، لما كان لها من السيادة والنفوذ، ولكن الشك كان يحيق بأنساب كثير من أهل العصبية والرياسة. بل لقد تطرق هذا الشك إلى أنساب زعماء الفاتحين أنفسهم، فقيل عن طارق بن زياد أنه من البربر، وقيل إنه فارسى من موالى العرب[2] ... ».

ويلتفت الأستاذ عنان بعد هذا التعليق إلى نسب ابن خلدون، التفاتة بارعة، مستقرئاً ذلك من الحقيقة الراهنة مع ابن خلدون. فيقول: «وهنالك أيضاً ما يبعث على التأمل فى تعلق ابن خلدون بهذه النسبة العربية، وهو أنه فى مقدمته يضطرم نحو العرب بنزعة قوية من الخصومة والتحامل، بينا نراه فى مكان آخر من تاريخه يمتدح البربر ويشيد بخلالهم ومناقبهم[3] ».

وهذا الذى يقوله الأستاذ عنان يكاد يقره الكثيرون، وذلك حين يؤكدون: أن مثل هذه الخصومة البادية فى تحامل ابن خلدون على العرب، لا يمكن أن تصدر من مؤرخ استهدف الحقيقة، وزاملته النزاهة، وصحبته الاستقامة. كما أنه من البعيد المستهجن أن لا تكون الأمة استطاعت أن تتغلب على دولتين من أقوى دول الأرض يومذاك، وأن تشيد على أعقاب ملكهما ملكاً تزدهر فيه الحضارة ويعم الرخاء، ويستبحر العمران، ويقوى على مقارعة الخطوب ومصاولة الأيام سنين طويلة وعصوراً مديدة.

(١) المصدر السابق.
(٢) ابن خلدون حياته وتراثه — ١ص١٢ س ١١ ط أولى القاهرة.
(٣) ابن خلدون حياته وتراثه لعنان ج ص١٤ س٢ ذات الطبعة.

أجل ، إنه من المستهجن حقاً ألا يكون لهذه الأمة من المزايا ما يجعلها فى نظر ابن خلدون فى مصاف الفرس والرومان ، أو فى مصاف (البربر) على الأقل !! الذين امتدحهم كثيراً ، وأطنب فى مدحهم ، وذكرهم فى كثير من المواطن التى كان للعرب ما يفوقها ، فضلاً عن أن يماثلها ويسير فى نهجها . وأن ذلك عجيب يستفز الريبة !!

إذن لم يبق أمامنا إلا أحد وجهين : إما أن ابن خلدون كان اتهامه فى نسبه حقيقة راهنة ، حتى بدر على لسانه هذا الذى بدر من الشك فى ترتيب ذلك النسب ، ثم هو يدعيه ويتظاهر به ، حرصاً على مكانته لدى الملوك والأمراء ، إذ كانت العروبة — كما يذكر الرواة — « شرفاً يرغب فى الانتساب إليه » . إلا أنه ينم عليه قلبه ، ويكشفه تعصبه ، فإذا هو عدو فى ثياب صديق ، وإذا هو يحمل شنشنتين :

أولاهما : هذا العداء الموروث الذى كانت تنطوى عليه تلك الأقوام المختلفة من دعاة الشعوبية فى شتى الأقطار التى دخلها العرب غزاة فاتحين .

وأخراهما : هذا الحقد المرير الذى يضطرم فى دخيلة نفسه ، كلما ناء محمولاً على أن يتظاهر بالانتساب إلى غير أهله ، حرصاً على مكانته بين الناس !

ومن جراء هذه وتلك يجرى ملتمساً المثالب فى كل باب ، ومقتنصاً للمعايب من كل سبيل ، ومنقباً عن أسباب الخيبة والفشل وانتقاض العمران ، ليلبس ذلك كله للعرب ويسنده إليهم ، ويلحقه بهم غير مستنكف ولا متورع .

وإما أن يكون ابن خلدون على النقيض من ذلك ، أى أنه عربى محض ، وأن تحامله على العرب كان وليد تأثره بأوضاع شخصية ، وظروف خاصة أحاطت به فى شتى أطوار حياته وتشتت بها شمله ، وتغرب عن بلده ، وقاسى من العناء والمشقة الدسائس وحسد الحاسدين ، ما جعله يسىء الظن بأقرب المقربين إليه ، فيعيد هذا الفساد الخلقى إلى نقص موروث ، تناقله الأبناء عن الآباء .

أضف إلى ذلك أنه كان يعيش فى زمان كثرت فيه الدويلات، وانتقصت فيه ممالك الإسلام من أطرافها . فهذا (تيمور لنك) يكتسح الممالك الإسلامية من الشرق فتخرين يديه دولة أثر دولة ... وهؤلاء الأسبان فى الأندلس ، يدحرون المسلمين أمامهم ، ويتنزعون منهم بلداً أثر بلد . وهنالك الثورات والقلاقل التى كانت لا تخبو نارها ، ولا يخمد أوارها . ثم هو لا يزال يشاهد من أحوالها ما يجعله ذاهلاً حائراً ، لا يدرى إلى أية فئة ينحاز ، ولا إلى أى قبيل يلتجىء !!

وإذا ما التزم العافية عاش عالة على سواه ، وبقى هملاً لا قيمة له ولا أثر ، وهيهات أن يرتضى ذلك ابن خلدون ، وهو سليل السادات وحفيد الأمجاد . إذن فلا بد من أن يخوض هذه المعمعة ، ويصيبه من شرورها شتى الألوان .

ومن ظن ممن يلاقى الحروب بأن لا يصاب فقد ظن عجزا

فابن خلدون إذن حين يحمل على العرب هذه الحملات ، إنما يتحدث عن عرب زمانه ، ومن يدرى ، فلعلهم — شأن من يؤثرون الشقاق على الألفة ، ويظاهرون العدو للإيقاع بإخوانهم !! — جديرون بهذا الذى نتهم به ، بل خليقون بأكثر منه ... وهو حين يتجاوزهم إلى من سبق من أسلافهم لم يزد على أن يأخذ البرىء بجريرة العاصى ، وتلك سنة من جمح به هواه .

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

هذا ما عن لى أن أقوله فى تعليق على رأى ابن خلدون فى العرب ، وذلك (على هامش دراسات الأستاذ الحصرى) . ولعلى أميل فى تعليل تحامله إلى الرأى الثانى وهو فى يقينى أقرب إلى الحقيقة والواقع .

وهنا أختم كلامى بتعبير كان يكرره ابن خلدون كثيراً — وذلك على سبيل التيمن والبركة — فأقول : والله تعالى أعلم !

(زحلة — نزل إلياس ثابت) محمد سليم الرشدان

* ماجستير فى الآداب واللغات السامية *

مصادر البحث :

١ — العددان (٨١٩ و ٨٢٠) من مجلة الرسالة الزاهرة .

٢ — مقدمة ابن خلدون — المطبعة التجارية الكبرى لمصطفى محمد. لم يذكر رقم الطبعة ، ولم يذكر تاريخ الطبع !

٣ — دراسات عن مقدمة ابن خلدون تأليف الأستاذ ساطع الحصرى بك . جزءان ، الأول طبع سنة ١٩٤٣ فى مطبعة الكشاف بيروت . والثانى سنة ١٩٤٤ بالمطبعة عينها .

٥ — ابن خلدون — حياته وتراثه الفكرى . تأليف الأستاذ عبد الله عنان المحامى . طبعة أولى دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٣ .

٦ — فلسفة ابن خلدون الاجتماعية . تأليف الدكتور طه حسين وعربه عن الفرنسية الأستاذ محمد عبد الله عنان المحامى . الطبعة الأولى سنة ١٩٢٦ القاهرة .